﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠﴾ [نوح: 5 - 10]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

شكوى نوحٍ لربِّه بعدَ إنذارِ قَوْمِه

بعد أن ذكَرَ اللهُ ﷻ أنَّه أمر نوحًا عليه السلام، بإنذار قومه قبل أنْ يحلَّ بهم عذابٌ أليم، وأنَّه لبّى نداءَ ربِّه، فأنذر قومَه، ورغَّبهم، وخوَّفهم؛ أتْبَعَهُ هنا بمناجاته لمولاه وشكواهُ إليه، مخبرًا عن إنذاره لهم مطيعًا أمرَ ربِّه فيهم، حاكيًا عصيانَهُم واستكبارَهُم عنِ الدَّعوة[1]، ونبَّه على ذلك بمقولِه في هذه الآيات؛ لكونه عليه السلام أطولَ الأنبياء عُمرًا، وكان قد طال نُصْحُه لَهُم وبلاؤهُ بِهِم[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿دَعَوْتُ﴾: أصلُ (دعو/ دعا) تدلُّ تصريفاتُهُ على إمالَةِ الشَّيءِ إليك بصوتٍ وكلامٍ يكونُ منك، تقولُ: دعَوتُ أدعو دُعاءً، والدَّعوةُ إلى الطَّعامِ بالفتحِ، والدِّعوةُ في النَّسَبِ بالكسرِ[3]، ودعوتُه بمعنى: ناديْتُهُ[4]، ويأْتي الدُّعاءُ بمعنى الطَّلَبِ والسُّؤالِ، ومنه سُمِّيَت الرَّغبةُ إلى اللهِ ﷻ دُعاءً[5]، والدُّعاء في الآية معناه: القولُ الدّالُّ على طلَبِ عمَلٍ من المُخاطَبِ[6].

(1) المراغي، تفسير المراغي: 29/ 81.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 20/ 429 - 430.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (دعو).
(4) الجوهريّ، الصَّحاح: (دعا).
(5) الفرّاء، معاني القرآن: 2/ 118، وابن سيده، المحكم: (دعو).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/ 302.

2) ﴿يَزِدْهُمْ﴾: (زيد) أصلٌ يدُلُّ على الفَضْلِ[1]، يُقالُ: زاد الماء والمال، وازدد من الخير[2]، والزّيادةُ: النُّموُّ والكَثْرَة، وجَمْعُها: زَوائِدُ، يُقالُ: زادَ، يَزيدُ، زَيْدًا وزيادَةً، وضِدُّها: النُّقْصان[3]، وتَزايَدوا في الثَّمَن حتَّى بَلَغَ مُنتهاه، والتَّزيُّد: تَكلُّفُ الزّيادةِ في الكَلامِ وغيرِه[4]، والزّيادة أيضًا: ضمُّ شيءٍ إلى ما عليهِ الشَّيءُ في نفسِه[5]، وهو المرادُ في الآيةِ.

3) ﴿فِرَارًا﴾: (فرّ) أصلٌ يدلُّ على الانكشاف، وما يُقاربه من الكشف عن الشَّيء، ومن هذا القياس: الفِرار، وهو الانكشاف، والفِرارُ: الرَّوَغان والهَرَبُ[6]، فَرَّ يَفِرُّ فِرارًا؛ إذا هَرَبَ من طالبه، وزاغ عن عينه، ورَجُلٌ فَرورٌ وفَرورةٌ وفَرّار: غَيْرُ كَرّارٍ[7]، والمراد به في الآية الكريمَة: التَّباعدُ مِنَ الإيمانِ[8]، وهو مُستعارٌ لقوَّةِ الإعراضِ[9].

4) ﴿وَٱسْتَغْشَوْاْ﴾: (غشي) أصلٌ يدلُّ على تَغْطيَةِ شَيءٍ بِشَيءٍ، والغِشاءُ: الغِطاءُ[10]، وغَشيَهُ غِشاوَةً وغِشاءً، أي: ستَرَهُ، والغِشاوَةُ: ما يُغطّى به الشَّيء، قال اللّه تعالى: ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ [الجاثية: 23][11]، والاستغشاء في الأصل اشتمال من فوق، ولمّا كان فيه معنى السَّتر استعمل بمعناه، وأصل الاستغشاء طلب الغشي، أي: السَّتر، ولكن معنى الطَّلب هنا ليس بمقصود بل هو بمعنى التَّغطّي والسَّتر، والمراد به هنا: المُبالغة في التَّغطّي بثيابهم كأنَّهم طلبوا منها أن تغشاهم؛ لئلّا يبصروه كراهة النَّظر إليه[12]، والمراد به في الآيةِ الكريمَةِ: يُغَطّون وجوهَهُم ورُؤوسَهُم[13].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زيد).
(2) الزمخشري، أساس البلاغة: (زيد).
(3) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (زيد).
(4) الزبيدي، تاج العروس: (زيد).
(5) السمين، عمدة الحفاظ: (زيد).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (فر/ فرر).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (فرر).
(8) الواحدي، البسيط: 22/ 251.
(9) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 194.
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غشى).
(11) الراغب، المفردات: (غشي).
(12) الهرري، حدائق الروح والريحان: 30/ 249.
(13) القنوجي، فتح البيان: 14/ 333.

5) ﴿وَأَصَرُّواْ﴾: (صرر) أصله يدلُّ على تضامٍّ والتِئام، أو تداخلٍ شديدٍ[1]، تقول: أصرَرْتُ على الشَّيء؛ إذا أقمتَ، ودُمْتَ عليه، ومنه قوله: ﴿وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [آل عمران: 135]، ويُطْلَقُ على العَزْم والتَصْميم، من قَوْلِهم: أصَرَّ على فِعْلِه؛ إذا عَزَم على أن يَمْضيَ فيه، ولا يرجِع[2]، وأكثَرُ ما يُستعمَلُ في الشَّرِّ والذُّنوبِ والآثام، يُقالُ: أصَرَّ على الذَّنْبِ، يُصرُّ، إصرارًا، فهو مُصِرٌّ: إذا لم يُقلِعْ عنه، والإصرارُ في الآية مراد به: تحقيقُ العَزْمِ على فِعْلٍ، أو: المقامُ على الذَّنْب وعدمُ الانفكاكِ عنه[3].

والمعنى في الآية الكريمَةِ: أقاموا على فِعْلِهم[4].

6) ﴿وَأَسْرَرْتُ﴾: (سرّ) أصلٌ يدلُّ على إخفاءِ الشَّيء، وما كانَ مِنْ خالصِه ومُستقرِّه، لا يَخرُجُ شيءٌ منه عَنْ هذا[5]، فالسِّرُّ: ما يُكْتَمُ في النَّفْسِ، يُقالُ: أسَرَّ الشَّيءَ، أي: أخفاهُ وكَتَمَهُ، وضِدُّهُ: الإعلان، ويُستعمَلُ في الأعيانِ والمعاني، يُقالُ: أسْرَرْتُ إليه كلامًا، أي: أخبرتُه به خُفيَةً، وسِرُّ كُلِّ شيءٍ: جَوْفُهُ وداخِلُهُ، والجمعُ: أسرارٌ وسرائرُ[6]، والإسرار في الآية معناه: إخفاءُ الكلامِ عنْ أن يَسمَعَه سامعٌ.

والسِّرُّ: ما أخفَيتَ، وكَتَمْتَ، والجَمْعُ: أسرار[7]، والمراد في الآية الكريمة: كلَّمتهم فيما بَيْني وبينَهُم[8].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يُخْبِر اللّهُ تعالى عن مُناجاةِ نوحٍ عليه السلام لربِّه، بقوله شاكيًا حالَ قومه: يا ربِّ إنّي لم أنقَطِع عن دعوةِ قَوْمي إلى الإيمانِ بكَ وطاعَتِك ليلًا ونهارًا، ولكنَّ دعائي لَم يَزِدْهُم إلّا هربًا وإعراضًا عن الحقِّ، ويُبيِّن شدَّة عنادهم، فيقول: إنّي كلَّما دعوتُهم؛ ليؤمنوا، فتغفِرَ لهم؛ وضَعوا أصابِعَهُم في آذانهم؛ كَي لا يَسْمَعوا دعوةَ الحقِّ، وتغطّوا بثيابهم

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي: (صرر - صرصر).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (صرر).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 196.
(4) السمعاني، تفسير السمعاني: 6/ 55.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سر).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سر).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (سرر).
(8) الواحدي، البسيط: 22/ 252.

شكوى نوح عليه السلام ودعْـوَتُـه قَـومَهُ وإعراضُهُم عنهُ

كراهةً لرُؤْيَتي، فلازَموا كُفْرَهُم، وأقاموا عليه، واستَكبَروا عن قبولِ الإيمان استكبارًا شديدًا، ثمَّ إنّي دعوتُهم علانيةً في مَجامِعِهم، وأسررتُ لهم بالدَّعوة سرًّا، وكنتُ أقول لهم في دعوتي لهم: اطْلُبوا مِن ربِّكم غفرانَ ذُنوبِكم، وتوبوا إليهِ مِن كُفْرِكُم؛ فإنَّ اللّه غفّارٌ لمَن تاب مِن عبادِهِ، ورجَعَ إليهِ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغَةُ الفَصْلِ في الآيةِ:

بيانٌ لِما أسْفَرَت عنهُ الرِّحلةُ في الدَّعوةِ

فُصِلَ قولُ اللّه تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ عمّا قبلَهُ؛ لأنَّهُ مستأنفٌ استئنافًا بيانيًّا، فيكون بين الجملتين شبهُ كمال الاتِّصالِ، فقد سيقَت هذه الجملةُ جوابًا عن سؤال يُفْصِحُ عن ترقُّب السّامع لمعرفةِ ماذا حدث بعدَ ذلك، وماذا أجاب قومُ نوحٍ، وماذا ردَّ عليهم؟ فكان في هذه الجملةِ بيانٌ لذلكَ كُلِّهِ[2].

دلالَةُ حَذْفِ حَرْفِ النِّداء:

استحضارُ القُرْبِ وعُلوِّ المقامِ

حَذَفَ النَّظمُ الجليلُ أداةَ النِّداءِ، في قوله جلَّ شأنه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾، فلم يقل: (يا ربّي)؛ وذلك لتحقُّق نوحٍ عليه السلام أنَّه لا قريبَ منهُ غير اللّه تعالى؛ فأسقَط أداة النِّداء، كما هي عادة أهلِ القُرْبِ[3].

دلالةُ الدُّعاءِ بلَفْظِ ﴿رَبِّ﴾ دون الاسْمِ الأحسَنِ (الله):

الاسْـتِرحـامُ والاعْـتِرافُ بالنِّعْمَةِ مِن خُلُقِ الأنْبياءِ

علَّق النَّظم القرآنيُّ النِّداءَ بلفظِ الرُّبوبيَّة، في قوله جلَّ شأنه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾؛ لِما فيه مِن ترحُّم واستعطاف، أي: يا سيّدي وخالِقي[4]، متضمِّنًا الاعترافَ بالإحسانِ، والتَّفضُّلَ عليهِ مِن مَوْلاهُ بالنُّبوَّة والرِّسالَة.

(1) جماعة من العلماء، التفسير الميسر: 1/ 570.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 193.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 430، ومحمد الهلال، تفسير القرآن الثري الجامع: 29/ 183.
(4) الخطيب، السراج المنير: 4/ 390.

بلاغَةُ التَّوكيد بـ (إنَّ):

مِـن أبـلَـغِ الجُحودِ مقابلَةُ جُهد الأنبياءِ في الدَّعوة والتَّبليغ بالإعراض

لمّا كان مِن المعلوم أنَّ التَّأكيدَ مظِنَّةُ التَّأثير، وكان فتورُهُم وعَدَمُ مُبالاتِهم مدعاةً للشَّكِّ؛ أكَّدَ ﷺ كلامَهُ بحرف التَّوكيد (إنَّ) إظهارًا لتحَسُّرِهِ عَليهم؛ لتماديهِم في الإصرار على التَّكذيب شكايةً لحالِهِ إلى اللّه تعالى، واستنصارًا به، وإظهارًا لِما يَفْعَلُ به بذلُه الجُهْدَ، وإنْ كان المخاطَبُ سبحانَهُ عالمًا بالسِّرِّ وأخْفى[1].

الغرَضُ مِنَ الخبَر:

شكـوى المحـبِّ خـيرُ وسيـلَـةٍ للطَّلب

الجملةُ في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ جملةٌ خبريَّةٌ، ولا يُرادُ بها إعلامُ المخاطَبِ بمضمونِها، وإنَّما الغرضُ مِنها الشِّكاية والتَّمهيد لطلَبِ النُّصْرَة عليهم؛ لأنَّ اللّه تعالى لا يخفى عليه مضمونُ الخبر، فالغرَضُ مِنَ الخبر ليس الإخبارَ بل التَّوطئة لِما يأتي بعدَهُ[2].

دلالَةُ استعمالِ الفِعْلِ الماضي ﴿دَعَوْتُ﴾:

تحقُّقُ الدَّعوةِ والإيفاءُ بواجِبِها

عبَّر النَّظم القرآنيُّ بفعل الدُّعاء بصيغة الماضي، في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾؛ للدَّلالة على إيفائِه بالمَطْلوب منهُ وما بُعِث به، وأنَّه أوقَعَ الدُّعاء بالحِكْمَة والموعظة الحسنَةِ، ولَم يَتْرُك دعوةَ قومه، فهو دالٌّ على تحقُّق الفِعْلِ[3].

دلالة التَّعبير بلفظ (قوم) مضافًا إلى ياء المتكلِّم:

مـا فـي الـقـوم من عيبٍ سِوى الإعـــراضِ عـن الحقِّ

عبَّر النَّظم الجليلُ بلفظ (قوم) مضافًا إلى ضمير المتكلِّم، في قوله سُبحانَهُ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾؛ للدَّلالة على أنَّ فيهم قوَّةً لِما يُحاوِلون، فهُم مقتَدِرون على الإيمان، والإضافة تدلُّ على أنَّهم كانوا جَديرينَ بإجابَة نوحٍ ﷺ لمعرفتِهم بِهِ، وقربِهم منهُ، ولكونِه ﷺ مِنهُم، وأنَّهُ حريصٌ عليهِم وعلى نُصْحِهِم[4].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 430.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 193.
(3) المراغي، تفسير المراغي: 29/ 82.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 430، والخطيب، السراج المنير: 4/ 390.

دلالة التَّعبير بظَرفَي الزَّمان اللَّيل والنَّهار:

الـــدَّوام على الدَّعوة باستمرارِ الجهد

عبَّر البيانُ القرآنيُّ بظَرفَي الزَّمانِ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾؛ للدَّلالة على أنَّ دعاءَهُ قد عمَّ جميعَ الأوقاتِ، وأنَّه دَعاهُم إلى الإيمان بلا فُتورٍ، وبلا توانٍ، ولا هوادَةٍ، فأُريد منهما بيان المُداومَة على الدَّعوة، وذلك لأنَّ الزَّمانَ مُنْحَصِرٌ بهما، فهُما يَشْمَلانِ كلَّ ساعات اليوم[1]، ثُمَّ إنَّه يترصَّد الوقت الذي يتوسَّم أنَّهم فيه أقرب إلى فَهْم دعوتِه منهم في غيره من أوقاتِ النَّشاط، وهي أوقاتُ النَّهار، ومن أوقاتِ الهُدوء وراحة البالِ، وهيَ أوقاتُ اللَّيل[2].

دلالَةُ تنكيرِ لَفْظَي اللَّيل والنَّهار:

التَّبشير بالدَّعوة دائِـمٌ مستمِرٌّ شـامِـلٌ لـكـلِّ الأيّام واللَّيالي

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ عن الظَّرفَيْنِ على وجْهِ التَّنكير، في قوله جلَّ شأنُه: ﴿إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾؛ للدَّلالة على العموم والشُّمول، فهو أخبَر أنَّه دعاهم كلَّ ليلٍ وكلَّ نَهارٍ[3]؛ إيماءً إلى انتفاءِ تَهاوُنِه في شأنِ الدَّعْوَةِ.

دلالَةُ العَطْفِ بالفاءِ:

النَّتيجةُ المُترَتِّبة عـلى دَعْـوَةِ المُنكِرين نُفورٌ لا إيمان

الفاءُ في قوله تَعالى: ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا﴾، عاطفَةٌ للتَّرتيب والتَّعقيب والسَّبَبيَّة، فقد عطفَت زيادةَ الفرارِ من الدُّعاء على الجملةِ، في قوله تَعالى: ﴿دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾؛ وذلك لأنَّ دعوتَهُم تسبَّبت بمزيدِ نُفورِهم[4]، فأتبعَ الدُّعاء بما تمخَّضَ عنهُ مِن نفور الكافرينَ.

دلالة النَّفي بالأداةِ (لَم):

انـتـفـاءُ الـعِـبَر والـعِـظـات عن الـكـفّـار عـلى سبيلِ القَطْعِ

جاءَ النَّفي بـ (لم)، في قوله ﷻ: ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا﴾؛

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 430، والهرري، حدائق الروح والريحان: 30/ 248.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 194.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 294.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 281.

لكونها تدخُلُ على المضارعِ، فتقلِبُ دلالَتَهُ من الحاضِرِ إلى المُضيِّ، فتكون هنا دالَّةً على أنَّ المذكورَ مَعها قد حدث، وانتهى بلا توقُّعٍ لحصوله، وليس له اتِّصالٌ بالحاضرِ، بخلاف ما لو كان النَّفْيُ بـ (لمّا)؛ فأفادَ النَّفيُ بها على أنَّه لم يكن ثمَّة توقُّعُ حصولِ شيءٍ غيرِ زيادَةِ الكُفْرِ والإعراضِ مِنهُم[1].

دلالَةُ الفِعْلِ المُضارِعِ (يزد):

تراكُم الضَّلال وتصاعُدُ النُّفور

عبَّر البيانُ القرآنيُّ بفِعْلِ الزّيادة، في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا﴾، وهي دالَّة على ضمِّ شيءٍ إلى ما عليهِ الشَّيءُ في نَفْسِه[2]، فإنَّهُ لمّا كانوا ضالّين مُبْتَعِدين عن الهدى، فإنَّ الدَّعوة إلى الإيمانِ والهدى ضَمَّت إلى ابتعادِهم مزيدًا من البُعْدِ؛ لمُقابلَتِهم الدَّعوةَ بالإصرارِ عَلى الكفر والتَّمسُّك به، ورسَّخ هذا المعنى صَوْغُ الفعْلِ مضارعًا؛ فإنَّه يُفيدُ استمرارَهُم على العنادِ والإعراضِ والفرارِ مِنَ الحقِّ.

دلالَةُ استثناءِ الفِرارِ مِن عُموم الزّياداتِ:

حضرُ الزّيادة في الشَّرِّ وإبرازُ النُّفور المتزايدِ

استثنى النَّظمُ الجليلُ الفرارَ، في قوله تَعالى: ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا﴾، من عموم الزّيادات، وهو استثناءٌ مُنقطِعٌ، وتقديرُ الكلام: فلم يَزِدْهُم دُعائي قربًا مِن الهدى، لَكِنْ زادَهُم فرارًا[3]، وهذا يُبْرِزُ عدمَ تحقيقِ الدَّعوة لأثَرِ ما في نُفوسِ الكافرين، ويُبَيِّن مَدى رَفْضِ القَوْمِ وإصرارهم على الابتعادِ.

وَجْهُ جَعْلِ زيادة الفرارِ مُسَبَّبَةً عنِ الدُّعاء:

ما أشدَّ عُتوَّ القومِ حين يُسَبِّبُ الدُّعاءُ نُفورًا!

نُسِبَتِ الزّيادةُ في الكفر والابتعاد عن الهدى إلى الدَّعوة، في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا﴾؛ لأنَّ تلك الزّيادة حَصَلَت عندَ وُقوع الدُّعاء، والدُّعاءُ ليسَ سببًا على الحقيقةِ لزيادَةِ النُّفور[4]،

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 294.
(2) السمين، عمدة الحفاظ: (زيد).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 194.
(4) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 542.

فنسبَهُ إلى الدَّعوة على سبيلِ المَجاز؛ لأنَّ دُعاءَه إيّاهم كان سببًا في تزايد إعراضِهم[1]، وفيه دلالةٌ على ردِّهم كلامَهُ عليه السلام[2].

دِلالَةُ التَّعبيرِ بالفِرار وتَنْكيرِه:

فـرارٌ مُتعاظِمٌ وإعـــراضٌ لا هِدايَةَ بعدَهُ

عبَّر النَّظم القرآنيُّ بالفرار في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا﴾؛ لدلالتِهِ عَلى الهُروب[3]، وهو مُستعمَلٌ هنا للدَّلالة على قوَّة الإعراضِ عَنِ الدَّعوة والإيمانِ، أي: فلَمْ يَزِدْهُم دعائي قُرْبًا إلى الحقِّ، بل زادهم بُعْدًا ونفورًا[4]، وجيء بلفظِ الفِرارِ مُنَكَّرًا؛ لما في التَّنكير من دلالةٍ على التَّعظيم، فدلَّ هذا على عِظَمِ فِرارِهم وبُعْدِهم عن الحقِّ والدَّعوة وإعراضِهم عَنْهُما[5].

دلالَةُ العَطْفِ بالواوِ:

مَـــعَ الـــفـــرارِ مشاهِدُ النُّفور تُصَوِّرُ قُبْحَ رَدِّهم

عَطَفَ البيانُ القرآنيُّ الجملةَ، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ﴾، على جملة: ﴿إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا﴾؛ لأنَّ كلَيهما مِن مقول القول الَّذي قاله نوحٌ عليه السلام[6]، فعُطِفَ عليه ما يُبيِّنُه، وبين الجملتينِ توسُّطٌ بين الكمالَين؛ لاتِّحاد الجملتينِ في الخبريَّة، ولِما بينَهُما مِنَ التَّناسُبِ لفظًا ومَعنًى؛ فأمّا التَّناسُبُ اللَّفْظيُّ؛ فاشتراكُهما في الاسميَّة، وتصديرُ كلٍّ مِنْهُما بحرف التَّوكيد، واتِّحادُ المسنَدِ إليه معنًى وصورَةً، وأمّا الاشتراكُ المعنويُّ؛ ففي كِلَيهما بيانٌ لحالِ نوحٍ عليه السلام في دعوتِهِ قومَهُ وما أجابوهُ بِهِ.

بلاغَةُ تأكيدِ الجُمْلَةِ:

شـدَّةُ الإعـراضِ مـع طـولِ زَمَـنِ الدَّعوةِ غايةٌ في النَّكارةِ

أكَّد النَّظمُ الجليلُ الجملةَ، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 194.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 431.
(3) الجوهري، الصحاح: (فرر).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 194.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 430.
(6) الدرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 10/ 184.

لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ﴾؛ لأنَّ الإعراضَ عن الدَّعوة التي امتدَّت تلك المدَّة المتطاولة ممّا لا يكادُ يُصدَّقُ[1].

دلالَةُ ﴿كُلَّمَا﴾:

تَـكـرار الـدَّعـوةِ وتَجَدُّدُ الصَّدِّ

﴿كُلَّمَا﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ﴾، أداة شَرْط غير الجازمة، وهي متعلِّقةٌ بجُمْلَتين يرتبطانِ بَبَعْضِهما تعلُّقَ الشَّرْطِ بجوابه[2]، وفائدة التَّعبير بها الدَّلالة على التَّكرار، أي: إنَّه قَد كرَّر عليهم الدُّعاءَ إلى الحقِّ، معَ تكرارِ الأوقاتِ وتَعاقُب السّاعات، ومع ذلك فقد كرَّروا الصَّدَّ والإعراضَ[3].

شُـمـولُ كُـلِّ الدَّعوات مقترنةً بأدلَّةِ الصَّدِّ عنها

ويجوز أن تكونَ ﴿كُلَّمَا﴾ مركَّبةً مِن كلمَتَيْن، كلمةِ (كُلّ) الدّالَّة على استغراقِ أفراد ما تضافُ هيَ إليه، و(ما) المصدريَّة، وهي حرفٌ يُفيد أنَّ الجملة بعدَهُ في تأويل مصدرٍ، وقد يُراد بذلك المصدَرِ زمانُ حُصولِه، فيقولون: (ما) ظرفيَّة مصدريَّة؛ لأنَّها نائبة عن اسمِ الزَّمان، والمعنى: أنَّهم لم يُظهروا مَخيلَة مِن الإصغاء إلى دعوتِه، ولم يتَخلَّفوا عن الإعراض والصُّدود عن دعوتِهِ طرفَةَ عينٍ، فلذلك جاءَ بكَلِمَةِ ﴿كُلَّمَا﴾ الدّالَّة على شمولِ كُلِّ دعوةٍ مِن دَعواتِهِ مُقترنَةً بأدلَّةِ الصَّدِّ عَنْها[4].

دلالةُ التَّعبير بفِعْلِ الدَّعوة ماضيًا وحذفِ مُتَعلَّقِه:

الـرُّسـوخُ في الكُفْرِ يُبَدِّد فائدَةَ الدَّعْوَةِ

عبَّر النَّظم الجليلُ عن الدَّعوة بالفعل الماضي، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ﴾؛ للدَّلالةِ عَلى تحقُّقِ الدَّعْوَةِ كاملَةً، وبُلوغِها إليهم، وهذا يُشير إلى كمالِ عتوِّهم وإصرارهم على الكفْرِ والعِناد، و"حُذِف متعلِّق دعوتِهم؛ لدلالةِ ما تقدَّم عليه

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 431.
(2) الدرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 10/ 184.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 282.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 195.

من قوله: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾، والتَّقدير: كُلَّما دَعَوْتُهم إلى عبادَتِك وتَقْواكَ وطاعَتي فيما أمَرْتُهم بهِ"[1].

مَعْنى اللّام ودلالَةُ التَّعبيرِ بِها:

غـايـةُ الـدَّعـوة محضُ النُّصحِ وتحقيقُ العَفْوِ والمغفرةِ

(اللّام) في قوله جلَّ شأنه: ﴿دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾ للتَّعليل، أي: إنّي دعوتُهم من أجلِ أن تَغْفِرَ لَهم، فالمغفرةُ هيَ المقصودُ الأوَّل من الدَّعوة[2]، والعلَّة الأساسيَّة للدَّعوة هي إيمانُهُم وتَوْبَتُهم، والمغفرةُ تكونُ نتيجَةً، فذكر المسبَّب والنَّتيجةَ من الدَّعوة؛ لأنَّه يُبَيِّن حظَّهم ونصيبَهم، فيكون امتناعُهم عن ذلك مُفْصِحًا عن قُبْح إعْراضِهم[3].

دلالةُ التَّعبير عن المَغْفِرَةِ بالفِعلِ المُضارِع:

مـغـفـرةُ الـلـهِ تَعالى لا تَنْقَطِعُ عن العبادِ

آثر البيانُ القرآنيُّ التَّعبيرَ بالفِعْلِ المُضارِع، في قوله جلَّ شأنُه: ﴿لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾؛ للدَّلالة على تجدُّد المغفرة ودوامِها؛ لأنَّ الإنسانَ مِن طبيعتِهِ ارتكابُ الخطايا، ومغفرةُ اللّهِ سُبحانَهُ مستمرَّةٌ لعِبادِهِ المؤمنين حالَ استِغفارِهم، فهو فِعْلٌ متجدِّدٌ.

نُكْتَةُ التَّعبير بشِبْهِ الجُمْلَة:

الإيماءُ إلى قُبْحِ إعْراضِهِم عنِ الحَقِّ

عبَّر النَّظم الجليلُ بشِبْهِ الجُمْلَة، في قوله جلَّ شأنه: ﴿لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾؛ ليبيِّن أنَّ المغفرة تكونُ مِن أجلهم؛ بسبَبِ إيمانهم باللّه وحدَهُ وطاعَةِ أمره على لسانِ رَسولِه، فالمُنْتَفِعُ بالمغفرةِ هُم، وهذا يشير إلى قُبْحِ إعْراضِهِم عن الدَّعْوَة[4]، وفيه أيضًا "تعريضٌ بتَحْميقِهِم، وتعجُّبٌ من خُلُقِهِم؛ إذْ يُعْرِضون عن الدَّعوة لِما فيه نفعُهُم، فكان مقتضى الرَّشاد أن يَسمَعوها، ويتدبَّروها"[5].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 195.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 651.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 281.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 281.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 196.

الموقِعُ البيانيُّ لجُمْلَةِ الفِعْلِ ﴿جَعَلُوٓاْ﴾:

جَعْلُ الأصابع في الآذانِ يَمْنَعُ بلوغَ أصوات الكلامِ إلى المسامِعِ، وقد عبَّر البيانُ القرآنيُّ بجملة ﴿جَعَلُوٓاْ﴾، في قوله تعالى: ﴿جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ﴾ جوابًا عن الشَّرْطِ السّابق[1]، فيكون جعلُ الأصابعِ مكرَّرًا بتَكْرارِ دُعائِهم إلى الإيمانِ والتَّوحيدِ.

صَمُّ الآذان عندَ كلِّ بيانٍ مِن أماراتِ الإعراضِ عنِ الإيمانِ

بلاغَةُ المَجاز المُرْسَل في التَّعبير بالأصابِع:

عبَّر البيانُ القرآنيُّ بالأصابعِ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ﴾، والمُرادُ: الأناملُ، وذلك على سبيل المجازِ المُرْسَلِ، والعلاقَةُ بينَ الأصابعِ والأناملِ: الكُلِّيَّةُ؛ إذ أُطلِقَ الكُلُّ - وهو الأصابع - وأُريد الجزءُ - وهو الأنامل - والمقصود أنَّهم يسدّون آذانهم بالأناملِ لا بالأصابع كلِّها، والنُّكْتَةُ في ذلك المبالغَةُ في سَدِّ الآذانِ ومَنْعِ السَّماع؛ بحيث لو أمْكَنَ؛ لأدخلوا الأصابعَ كُلَّها؛ لئلّا يسمعوا صوتَ الدّاعي؛ لِما لَهُم مِن كراهَةٍ لَهُ[2].

شـدَّةُ الـكُـرْه تزيدُ مِنَ النُّفور والتَّصامُمِ

دلالَةُ إضافَةِ الأصابع إلى الضَّميرِ الدّالِّ على الكفَرَةِ المُنكِرين:

أضاف النَّظمُ الجليلُ الأصابعَ إلى الضَّمير العائد على الكفّار المُنْكِرين، في قولهِ تَعالى: ﴿جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ﴾؛ للدَّلالَةِ على شدَّةِ النُّفور والإعراض، فهُم بأيديهم قد سدّوا سبيلَ الدَّعوة أن يَبْلُغَ أفهامَهُم، فسَدُّ السَّمع كانَ بإرادتهم واختيارِهم، وهُم المَسْؤولونَ عنهُ.

اختيارُ النُّفور وإظهارُ شدَّةِ الإعْراض

مَعْنى الواوِ ودِلالَتُها:

عَطَفَ النَّظمُ القرآنيُّ الجملةَ، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ﴾ على قوله تعالى: ﴿جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ﴾؛ للدَّلالة على أنَّهم جَمَعوا أكثرَ من صورةٍ مِن صوَرِ الإعراض عن السَّماع والنُّفور عن الدَّعوة، فأفاد العطفُ تعضيدَ سدِّ آذانهم بالأصابع؛

صـورٌ عـديـدَةٌ للنُّفور والإعراضِ عنِ الحقِّ

(1) الدرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 10/ 184.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 431، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 195.

لئلّا يَسْمَعوا كلامَهُ ﷺ، ولا ينظروا إشاراتِه[1]، وفي ذلك بيانٌ لشدَّة الإفراطِ في كراهَتِهم الإيمانَ والسَّماعَ للدُّعاءِ[2].

دِلالَةُ التَّعبيرِ بالفِعْلِ (استغشى) مادَّةً وصيغَةً:

امتِناعٌ عَنِ الهِدايَةِ بكُلِّ الحواسِّ

عبَّر البيانُ القرآنيُّ باستِغشاءِ الثِّياب، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ﴾؛ لدلالَتِه على التَّغطيةِ، أي: تَغطّوا بثيابهم[3]، وجاء التَّعبير بصيغة الاستِفعالِ؛ للدَّلالة على الطَّلبِ قصدًا إلى المُبالغَة[4]، فهو يُظْهِرُ مبالغَتَهُم في تغطيةِ رُؤوسِهم بحيثُ إنَّهم يَطْلُبون ذلك، ويَسعَونَ إليهِ حتّى لا يَراهُم، فيدعوهُم، أو لئلّا يَرَوْنَه؛ لكراهَتِهم إيّاهُ وكراهَتِهم كلامَهُ[5].

بلاغَةُ الكِنايَةِ في استِغشاءِ الثِّياب:

الكَراهَةُ والبُغْضُ كُلٌّ مِنهُما يُعْمي ويُصِمُّ

جاءَ التَّعبيرُ باستغشاءِ الثِّيابِ، في قوله سُبحانَهُ: ﴿وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ﴾؛ كنايَةً عَن شدَّة إعراضِهم عَن سماعِ الدَّعْوَةِ، ويجوز أن يُرادَ بهِ الكنايَةُ عَن العداوةِ، كما يُقال: لَبِسَ فلانٌ ثيابَ العَداوة[6]، فهو تعبيرٌ عَن كراهَتِهم للدَّعوة والدّاعي وشدَّة إعْراضِهم عَنْهُ، ويجوز أن يكونَ استِغشاءُ الثِّياب - فضلًا عن جَعْلِ الأصابع في الآذان - هَهُنا حقيقةً، بِوَصْفِها عادةً مِن عاداتِ قوم نوحٍ؛ إذا أرادَ أحَدٌ أن يُظْهِرَ كراهيةً لكلامِ مَن يتكلَّم معَهُ[7].

دلالَةُ عَطْفِ الإصرارِ والاستِكبار على ما قَبلَهُما:

التَّمسُّكُ بالضَّلال يورِثُ أهلَهُ الأعاجيبَ

عُطِفَ الإصرارُ والاستكبارُ، في قوله تعالى: ﴿وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا﴾ على جَعْلِهم الأصابِعِ في الآذان، في قوله تعالى: ﴿جَعَلُوٓاْ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 195.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 431.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 651.
(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 248.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 37.
(6) الهرري، حدائق الروح والريحان: 30/ 249.
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 195 - 196.

أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ﴾[1]؛ للدَّلالة على استمرارِهم على سوءِ أعمالِهم بإقبالٍ وحِرْصٍ وتمسُّكٍ بلا مُفارقةٍ، معَ استِكبارِهم عنِ الحَقِّ[2].

دلالَةُ التَّعبير بالإصْرارِ:

تقصُّدُ الذَّنب والتَّمسُّك بالتَّمرُّد

عبَّر النَّظم الجليلُ بالإصرار، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا﴾؛ لدلالة الإصرار على التَّعقُّد في الذَّنب والتَّشدُّد فيه، وتحقيق العزْمِ على فِعْلِه والامتناعِ مِنَ الإقلاعِ عَنْهُ[3]، أي: إنَّهم أصرّوا على شِرْكِهم وكُفْرِهم، وعلى إعْراضِهم عن سماعِ دعوةِ الحَقِّ[4]، وطاوَعوا أنفُسَهُم الأمّارة بالسّوء في إصرارهم.

دلالةُ التَّعبير بالاستِكبارِ مادَّةً وصيغَةً:

لا يستعلي على الحقِّ إلّا ناقصُه

عبَّر البيانُ القرآنيُّ بالاستكبارِ، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا﴾؛ للدَّلالة على المبالغَةِ في تَعاليهم وتمنُّعِهم عمّا يَجِبُ عليهم فِعْلُه، والتَّعظُّم في ذلك، أي: إنَّهم أظْهروا تكبُّرهم وتعظُّمهم عن الطّاعة والاتِّباع، وأخَذَتْهُم العزَّةُ بالكفر والشِّرك[5]، وجاء التَّعبير بصيغَةِ الاستِفعالِ؛ للدَّلالة على الطَّلب قصدًا لإرادَةِ المبالغَةِ، أي: إنَّهم قد أوجدوا الكِبْر مع طَلَبِهِم لَهُ ورغبَتِهم فيه[6].

دلالةُ توكيدِ الاستِكبارِ بالمَفعولِ المُطْلَقِ:

لا استكبارَ كالاستِكبار على الحقِّ

أكَّد البيانُ القرآنيُّ الاستكبارَ بالمَفعولِ المُطْلَق، في قوله تَعالى: ﴿وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا﴾؛ للدَّلالة على فَرْطِ استكبارِهم وشِدَّته، والمبالغة فيه[7] إلى حدٍّ تَمَكُّنه فيهم، وأفادَ التَّأكيدُ التَّنبيهَ على أنَّ

(1) الدرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 10/ 185.
(2) البقاعي، الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 432.
(3) الراغب، المفردات: (ص)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 196.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 651.
(5) الهرري، حدائق الروح والريحان: 30/ 250.
(6) الخطيب، السراج المنير: 4/ 392.
(7) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 542.

فِعْلَهُم ذلك كان ينبغي ألّا يُفْعَل؛ لمُنابَذَته الحكمةَ ومُخالَفَته العقلَ، وأنَّه لا يكاد يُصدَّقُ أن يُقْدِمَ عليه أحَدٌ[1].

دلالَةُ تنكيرِ الاستِكبارِ:

آثر النَّظم الكريمُ التَّعبيرَ عن الاستكبار مُنَكَّرًا، في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا﴾ لتعظيم الاستكبارِ، أي: إنَّهم استَكبَروا استكبارًا شديدًا لا تَنفَعُ معَهُ دعوَةٌ[2].

وَجْهُ العَطْفِ بـ ﴿ثُمَّ﴾:

التَّدرُّج في أساليبِ الدَّعوة دليلُ تَبايُنِ مَنازِلها

عطفَ البيانُ القرآنيُّ الجملةَ بـ ﴿ثُمَّ﴾، في قوله سُبحانَهُ: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا﴾ - وهي للتَّرتيب الرُّتبيِّ - للدَّلالة على التَّراخي في الانتقالِ مِن أسلوبٍ دعويٍّ إلى آخَرَ، وذلك لأنَّ أحوالَ الدَّعوة متباينَةٌ مُتَباعِدَةٌ، فالجهار أغلظُ من الإسرار[3]، وفيه ارتقاءٌ في الشَّكوى والاعتذارِ بأنَّ دعوتَهُ كانَت مختلفَةَ الحالاتِ في القَوْلِ ما بينَ جَهْرٍ وإسرارٍ[4].

اختلافُ كيفيَّةِ الدَّعوة ألصَقُ بالدَّعوة مِن أوقاتِ إلقائِها

ويُفيد عطفُ الجُمَلِ بـ﴿ثُمَّ﴾ هنا: "أنَّ مضمونَ الجُمْلَة المعطوفةِ أهمُّ من مضمونِ المعطوف عليها؛ لأنَّ اختلافَ كيفيَّة الدَّعوة ألصق بالدَّعوة من أوقاتِ إلقائها؛ لأنَّ الحالة أشدُّ ملابسَةً بصاحِبِها مِن ملابسةِ زمانِهِ، فذَكَر أنَّه دعاهُم جِهارًا، أي: عَلنًا"[5].

بلاغَةُ التَّأكيدِ بِـ(إنَّ):

رفْعُ توهُّمِ الفُتور في الدَّعوة وإثباتُ الاجتهادِ

أكَّد النَّظمُ الجليل الجملةَ، في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا﴾؛ للدَّلالة على أنَّ نوحًا ﷺ قد جدَّ، واجتهدَ في الدَّعوة، ففي التَّأكيدِ رفعُ توهُّم التَّواني في دعوتِهِ قومَه، وذلك إشارة إلى قيامِ الحجَّة عليهِم كامِلَةً[6].

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 432.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 196.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 282.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 196.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 196 - 197.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 435.

دلالَةُ تَكْرارِ لفظِ الدَّعوة:

إظهارُ الاجتهاد وإقامَةُ الحُجَّة

كرَّر البيانُ القرآنيُّ فِعْلَ الدَّعوة أربعَ مرّات، في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا﴾، فأكْثَرَ من لفظ الدَّعوة؛ اهتمامًا به وبيانًا له وتأكيدًا، وأنَّه يَجْري بأحوالٍ مُخْتَلِفَةٍ مكرَّرًا مكثَّرًا؛ إيماءً إلى قيامِ الحُجَّة عليهم[1].

دِلالَةُ التَّعْبير بالجَهْر، وبيانُ مَوْقِعه في الجُمْلَة:

مكاشفةٌ واضِحَةٌ وهَيْئَةٌ للدَّعوة صريحَةٌ

عبَّر النَّظمُ الجليلُ بالجَهْرِ، في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا﴾؛ لدلالته على الظّاهر المكشوف، وهو ضدُّ السِّرِّ[2]، فدلَّ على أنَّه دعاهُم مُكاشفَةً في فخامَةٍ مِنَ الصَّوت، فكان يُخاطِبُهُم مُقْبِلًا عليهم بلا احتجابٍ أو ارتقابٍ، بَل مُجاهرَةً ومُباغتَةً[3]، وهو هُنا حالٌ يبيِّن هيئَةَ المتكلِّم حالَ دَعْوَتِه قَوْمَهُ، أي: مُجاهرًا بالدَّعْوَةِ[4].

دلالَةُ إعادَةِ حرفِ العطْفِ ﴿ثُمَّ﴾ الدّالِّ على التَّراخي دون سِواها:

ترقٍّ في الأسلوبِ وتشديدٌ في التَّبليغِ

أعاد البيانُ القرآنيُّ التَّعبيرَ بحرفِ العطف الدّالِّ على التَّراخي ﴿ثُمَّ﴾، في قوله جلَّ شأنه: ﴿ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾؛ وذلك لأنَّ مراتِبَ دعوةِ نوحٍ عليه السلام كانت مُتَعَدِّدَةً، فبدأ بِنُصْحِهِم سِرًّا، ثمَّ دعاهُم مُجاهَرَة، فلمّا لم يُؤَثِّر فيهم ذلك؛ انتقلَ إلى الجَمْعِ بين الإعلان والإسرار، فـ ﴿ثُمَّ﴾ دالَّةٌ على تراخي بعضِ هذه المراتبِ عَن بعضٍ؛ إمّا بحسب الزَّمان، أو بحسب الرُّتبة؛ وذلك لأنَّ الجهار بالدَّعوةِ أغلَظُ من الإسرار بها، ومرتبةُ الجَمْعِ بين الإسرار والمجاهرة أغلَظُ مِنَ المُجاهرَة وحدَها[5].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 282.
(2) السمين، عمدة الحفاظ: (جهر).
(3) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 435.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 282.
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 651.

الجمعُ بين الجهر والإسرارِ أقوى في الدَّعوةِ مِنَ الاكتفاءِ بأحدِهما

وفي عَطْفِ هذه الجملة بـ ﴿ثُمَّ﴾ ارتقاءٌ بذِكْرِ "أنَّه ﷺ جَمَعَ بين الجهر والإسرار؛ لأنَّ الجمع بين الحالتين أقوى في الدعوة، وأغلظ من إفراد إحداهما، فقوله: ﴿أَعْلَنتُ لَهُمْ﴾ تأكيدٌ لقوله: ﴿دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا﴾، وذُكِر ليُبنى عليهِ عطفُ ﴿وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾، والمعنى: أنَّه توخّى ما يظنُّه أوغَلَ إلى قلوبهم من صفاتِ الدَّعوة، فجَهَرَ حينَ يكون الجهرُ أجْدى مثل مجامِع العامَّة، وأسرَّ للذين يَظُنُّهم مُتَجَنِّبين لَوْمَ قومِهم عليهم في التَّصدّي لسَماع دعوتِه"[1].

دِلالَةُ الطِّباق بينَ الإسرارِ والإعْلانِ:

تنوُّعُ الأساليبِ ابتِغاءَ فَتْحِ القُلوبِ للدَّعْوَةِ

جمعَ النَّظم الجليلُ بين لَفْظَي الإعلانِ والإسرار، في قوله جلَّ شأنه: ﴿ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾، على طريقة الطِّباق، وذلك لإظهار تنوُّع أساليب الدَّعوة، فقد دعاهُم علنًا في المجالسِ والمَحافِل، وسرًّا في الخَلوات والمُناجاةِ، بل وجمَعَ بين الطَّريقتَيْنِ معًا في أوقاتٍ مُخْتَلِفَةٍ، فما ترك وسيلةً في الدَّعوة إلّا سلَكَها[2]، فهذا الطِّباقُ يُؤَكِّد أنَّ نوحًا ﷺ لم يَدَعْ بابًا من أبواب التَّبليغ والدَّعوة إلّا سلكَهُ؛ حِرْصًا منهُ واجتهادًا على هِداية قومِه.

دلالَةُ تقديمِ الإعلان عَلى الإسرارِ:

إظهارُ الاجتهادِ يؤكِّدُ قيامَ الحُجَّةِ

قُدِّمَ لفظُ الإعلان على الإسرار، في قوله تَعالى: ﴿ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾؛ وذلك لأنَّ الإعلانَ أشدُّ مِنَ الإسرار[3]، فأخبَرَ أنَّه ابتدأ بأشدِّ السَّبيلين؛ لبَيانِ اجتِهادِهِ وانتفاءِ تَقْصيرِه، وإقامة الحجَّة على قومِه.

بلاغَةُ تَوْكيد الإسرارِ بالمَفْعولِ المطلق دونَ الإعلانِ:

تأكيدُ الجُهْدِ الخَفيِّ وإبرازُ المَشَقَّة

أُكِّد فِعْلُ الإسرارِ بالمفعول المطلقِ دون فعلِ الإعلانِ، في قوله

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 197.
(2) المراغي، تفسير المراغي: 29/ 82.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 37.

سُبحانَهُ: ﴿ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا﴾؛ لأنَّ الإسرارَ في الدَّعوة يتطلَّب تحيُّنَ الأوقاتِ المُناسِبَةِ الَّتي يكون فيها المدعوُّ خاليًا من المَشاغِل، وهذا ممّا يَعْسُر، ولكونِهِ يقَعُ في الخَفاءِ، فقَدْ يُستبعَد وقوعُه، أو يُظَنُّ قِلَّتُه، فاقْتَضى التَّأكيد، كما أنَّ تأكيدَهُ يدُلُّ على تأكيدِ ما قَبْلَهُ مِن الأفعالِ على وجْهِ الإيجاز[1].

الـخَـوْفُ مِـنَ الأتباعِ مُـؤَدٍّ إلى الهلاكِ

ووجهُ توكيدِ (الإسرار) أيضًا: "أنَّ إسرار الدَّعوة كان في حالِ دَعْوَتِه سادَتَهُم وقادَتَهُم؛ لأنَّهم يَمتَعِضون مِن إعلان دَعوَتِهم بمَسمَعٍ مِن أتباعِهم"[2].

دلالَةُ تَكْرار شِبْهِ الجملة ﴿لَهُمۡ﴾ في السّياق:

تخصيصُ القوم بالدَّعوة وإظهارُ نـقـاءِ الـنّـيَّـة وخُلوصِها

كُرِّرت شبهُ الجملة ﴿لَهُمۡ﴾ مع كلٍّ مِنَ الإعلان والإسرار، في قوله تَعالى: ﴿ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا﴾؛ للدَّلالة على تخصيصِ القَوْم بالدَّعوة في كلِّ حال جهرًا وسرًّا، ولإبراز أنَّ الدَّعوة كانت خالِصَةً لَهُم دون غيرهم، لا لحظِّ نَفْسٍ، ولا لغَرَضٍ دُنْيَوِيٍّ[3]، وأنَّ ضمائِرَ الغَيْبَةِ - في: ﴿أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ﴾، ومِن قبلِه في: ﴿دَعَوۡتُهُمۡ﴾ - موزَّعَةٌ على مختلف النّاس، فالجَهْرُ لعامَّة النّاس، والإسرارُ لمَنْ يتجنَّبُ لَوْمَ قومِه[4].

دِلالَةُ (الفاء):

تـفـريـعُ الـقـولِ على كمالِ البلاغِ

افْتُتِحَت الجملةُ في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا﴾، بالفاء العاطفةِ للتَّرتيب والتَّعقيب والسَّببيَّة المفيدةِ التَّفريعَ؛ للدَّلالة على تفريع مضمونِ القولِ على ما سبَقَ مِن اجتهادٍ في الدَّعوة، فبيَّنت الجملةُ ما كان يقولُ لَهُم في دَعْوَتِهِ سرًّا وجهرًا[5].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 436.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 197.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 436.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 197.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 197.

دِلالَةُ التَّعبير بالقَوْلِ مادَّةً وصيغةً:

إفْصاحٌ عَنِ المَقول، وتوثيقٌ للمَقالِ

عُبِّرَ بفِعْلِ القَوْلِ في قولِه جلَّ شأنه: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾؛ للدَّلالة على أنَّه قال تِلْكَ المَقولاتِ الَّتي تَضَمَّنَتْها دعوَتُه لقَوْمِه، فهو إفصاحٌ لِما كانَ يَنْطِقُ به[1]، وجاء التَّعبير بالفعل الماضي؛ للدَّلالة على تحقُّق وقوع ذلك القولِ وحُصولِه.

دلالَةُ جُمْلَةِ مقولِ القول:

دعوةٌ للتَّحلية للفَوْزِ بالتَّخلية

حكى النَّظم الجليلُ ما قاله نوح عليه السلام، في قوله جلَّ شأنه: ﴿ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾، وهو مقول دالٌّ على أنَّه دعاهم إلى الإيمان الذي يكون من نتائجه أنَّ اللهَ تَعالى سيَغْفِرُ لَهُم[2].

دلالَةُ التَّعبير بفِعْلِ الأمر ﴿ٱسْتَغْفِرُواْ﴾:

نُصْحُ العِباد لطَلَبِ الرَّحمة والمغفرةِ

عُبِّرَ بفعل الأمر في قوله جلَّ شأنه: ﴿ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ﴾؛ للحثِّ والدَّعوة والنُّصح والإرشاد، وجاء التَّعبير بصيغة الاستِفعالِ لإفادَةِ مَعْنى الطَّلب، أي: اطلُبوا، وسَلوا اللهَ تعالى أن يَغْفِرَ لَكُم ذُنوبَكُم[3].

دلالَةُ التَّعبير بالرُّبوبيَّة دون الألوهيَّة:

استدعاءُ الرَّحمةِ، والتَّذكيرُ بسابِقِ النِّعمة

عُبِّر بلفظ ﴿رَبَّكُمْ﴾ دون (إلهكم)، في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾؛ للدَّلالة على الرِّعاية واللُّطْفِ والتَّدبير، فذكَّرهم بالخالقِ المُحْسِن المتولّي لشُؤون عباده، وهذا التَّعبير أنسَبُ في مقام الدَّعوة إلى الاستغفار؛ لأنَّه يُذَكِّرُهُم بإحسانِ اللهِ تَعالى إليهم، وأنَّه أهلٌ لأنْ يُرْجَعَ إليه، ويُطْلَبَ غُفْرانُه[4].

المَوْقِعُ البيانيُّ للجُمْلَةِ المؤَكَّدة:

الاستِغفارُ سبيلُ رحمَةِ اللهِ تَعالى، ولا يَأْسَ مِن رحمتِهِ سُبحانَهُ

عُبِّر بالجملة المؤكَّدة المصدَّرة بـ (إنَّ)، في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾؛ للدَّلالة على التَّعليل؛ فقد علَّل دعوتَهُ إلى الاستغفار

(1) المراغي، تفسير المراغي: 29/ 83.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 197.
(3) المراغي، تفسير المراغي: 29/ 83.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 437.

بأنَّ الله تعالى موصوفٌ بالغُفْران، فهو إلهُ النّاس وربُّهم، وقد تَعَهَّدَ بالمغفرة لعباده المُستَغفِرين[1]، وأُكِّدَت الجملة؛ لئلّا يتعلَّلوا بكثرة المعاصي، بأن يقولوا: إنّا قد بالَغْنا في المعاصي، فلا نُقْبَل، فأكَّدَ ثبوت المغفرة لله تعالى؛ ردًّا على هذا الظَّنِّ[2].

دلالَةُ التَّعبير بفِعْلِ الكَوْنِ:

ثبوتُ الصِّفة ودوامُ المَغْفِرَة

عبَّر النَّظم الجليل بفعل الكَوْنِ ماضيًا، في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾؛ للدَّلالة على أنَّ الغُفْران صفةٌ ثابتةٌ للهِ تَعالى منذ الأزل، فهو سبحانه لم يزل غفّارًا، يغفر لمن تاب، وأناب، في كلِّ زمان ومكان[3]، فاتِّصافُ الله تَعالى بالمغفرةِ أزليٌّ، وتتجدَّدُ أفرادُ ذلكَ بحسب مشيئتِه سُبحانَهُ.

دلالَةُ التَّعبير بصيغَةِ المُبالَغَةِ:

سَعة الغفران مُشوِّقَةٌ لبذْلِ الاستغفارِ

عبَّر البيانُ القرآنيُّ عن المغفرةِ بصيغَةِ المُبالغة، في قوله تَعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾؛ للدَّلالة على أنَّه تعالى متَّصف بالغفران على وجْهِ الكمال[4]، فيتَناسَبُ تأكيدُ الجملة وتضمُّنها صيغة المُبالَغَة مَعَ الإيفاء بالمَعْنى في أبلغ صوَرِه، وفيه دلالةٌ على أنَّ الله تعالى يَغْفِرُ الذُّنوب الكثيرةَ والمُتَكَرِّرة، مرَّةً بعد مرَّة، وعلى وجْهِ الكمالِ والدَّوامِ.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الفرار والإعراض والهروب:

الفِرارُ هروبٌ وهو أشدُّ من الإعراضِ الذي هو تولٍّ بإبداءِ العرض

أصلُ الفرار يدلُّ على الانكشاف[5]، والفِرارُ: الرَّوَغان والهَرَبُ[6]، وقوله تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾﴾ [القيامة: 10]، أي: المهرب[7]، أمّا الإعراضُ؛ فأصلُهُ مِن العرض الذي هو خلافُ الطّولِ،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 197.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 437.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 652.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 197.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فر).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (فرر).
(7) السمين، عمدة الحفاظ: (فرر).

والأصل فيه أن يُطلَقَ على الأجسام، ثمَّ يُستعمَل في غيرها، كما قال الله تعالى: ﴿فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ۝٥١﴾ [فصلت: 51]، وإذا قيل: أعرَضَ عنّي؛ فمعناه: ولّى مُبديًا عَرْضَهُ، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَعۡرَضَ عَنۡهَآ﴾ [السجدة: 22][1]، فالإعراضُ: هو الصَّدُّ والتَّولّي عن الحقِّ، أمّا الفرارُ؛ فهو هروبٌ غيرُ مشروطٍ بالذُّعر بخلاف الهروب؛ فإنَّه المصحوبُ بنَوْعٍ مِنَ الرَّهبة والخوفِ والذُّعر، ولمّا كان الفرارُ تعبيرًا أشدَّ في الابتعادِ عن الحقِّ من الإعراضِ، وليس مصحوبًا بالذُّعر والخوفِ؛ عُبِّر في آيةِ سورة نوحٍ عليه السلام به - أي: الفرارِ - لبيانِ شدَّة انصرافهم ورَفْضِهم الحقَّ مِن غير أن يَأْبَهوا بمآلِ انصِرافِهم، أو يخافوا عواقِبَهُ.

الإسرار والتَّناجي والإخفاء:

الإسْرار يدلُّ على إخفاء الشَّيء[2]، وهو خلاف الإعلانِ، قال الله تعالى: ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ [إبراهيم: 31][3]، أمّا التَّناجي؛ فمِنْ قولهم: ناجَيْتُهُ، أي: سارَرْتُه، وأصله: أن تَخْلو به في نَجْوةٍ من الأرض، وقيل: أصلهُ من النَّجاة، وهو أن تُعاونَه على ما فيه خلاصُه، أو أن تَنْجوَ بسرِّك من أن يُطَّلَعَ عليك، ومِنْهُ قولهم: تَناجَى القومُ، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ﴾ [المجادلة: 9][4]، فالإسرارُ هو الإخفاءُ في البَوْحِ، والحديثُ مَع آخَرَ بصورَةٍ خَفيَّةٍ، أمّا الإخفاءُ؛ فهو الاحتفاظُ بالقَوْلِ في النَّفس من غيرِ إظهارٍ له، وأمّا النَّجوى؛ فهو الاختلاء بخلوة، فهو يدلُّ على الانفراد، والخلوة على الإسرار فيه، وعُبِّر في آيةِ سورة نوحٍ بالإسرار؛ للدَّلالة على أنَّ نوحًا عليه السلام كلَّم بعضَ قومِه، ودَعاهُم خُفيةً؛ لنَشْر دعوته على وفْقِ ما يُناسب حالَهُم.

السِّرُّ بوحٌ في خفاءٍ، والنَّجوى حديثٌ في اختلاءٍ، والإخْفاءُ مجانبةُ البَوْحِ

(1) الراغب، المفردات: (عرض).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سر).
(3) الراغب، المفردات: (سرر).
(4) الراغب، المفردات: (نجو).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع والستون،
سورة المَعَارج من الآية 15 إلى سورة المُدَّثِّر الآية 56
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع والستون، سورة المَعَارج من الآية 15 إلى سورة المُدَّثِّر الآية 56
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 64 ، 806 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-647-38-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 64 : المجلد الرابع والستون، سورة المَعَارج من الآية 15 إلى سورة المُدَّثِّر الآية 56.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-647-38-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6817852 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"